العرب الثقافي
الأحد 2020/04/05
السنة 42 العدد 11668

إحباط فايروسي

اكتملت حكاية الآخرين.. فمتى تبدأ حكايتنا؟

هل كنا نحرث في البحر؟

هيثم الزبيدي
كاتب عراقي مقيم في لندن

وباء كورونا شيء محبط. ابتداء من العزل الذاتي، إلى توقف الأعمال، إلى الاصابات والآلام والوفيات، إلى عودة الحدود وتوقف حركة العالم، إلى التفكير بتبعاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وصولا إلى الإحساس بأنك عاجز أمام شيء غير مرئي. لا توجد بالطبع جثث ممدة في الشوارع أو مصابون تحولوا إلى زومبي مخيف كما أتحفتنا الأفلام على مدى العشرات من السنين. الأمور هادئة نسبيا، ولعل الاستجابة بمغادرة الشارع والاكتفاء بالجلوس في البيت، في إجازة أو عمل عن بعد، كانت لافتة. السيطرة الحكومية تبدو أقوى مما كنا نتخيلها في فرض تعليمات الحجر، والسيطرة الإعلامية أهم وأعمق في تهيئة الناس نفسيا لقبول ما لم يكن بالحسبان. لكن كل هذا لا يمنع من الإحساس بالإحباط.

لمجلة ثقافية يبدو الإحباط بأبعاد مختلفة وكثيرة. من الناحية العملية، تضطر أن تنشر عددا مزدوجا وتؤجل الطباعة لأن اللوجستيات إما صعبة او متوقّفة. المطبعة توقفت لأن الورق متهم بنقل الفايروس. لو مرّت قضية الطباعة ووجدت مطبعة بديلة، فكيف تحل مشكلة التوزيع. لا سيارات تنقل ولا مكتبات تستقبل ولا طائرات توصل العدد الجديد إلى أيّ من الأسواق العربية التي تهتم بمجلة ثقافية. طاقم المجلة يجلس كل في بيته بانتظار الضوء الأخضر ليقول "ها قد عدنا".

لكن الأبعاد الثانية لا تقل أهمية. خذ مثلا إحباط الناشر أو رئيس التحرير أو الكاتب. ينشرون ويكتبون عن التنوير، ويخلصون في تقديم أفكار يعتقدون أنها تغيّر في بركة المياه الراكدة في واقعنا المعرفي والفكري. سنوات من العمل والمثابرة في محاولة تحريك الوعي ليخرج من الخرافة والتفسيرات الميتافيزيقية، لتجد نفسك أمام ردة فعل شعبية قدرية، حتى عند من يفترض أنهم من قرائك ومن أثرت فيهم بالكتابة والحديث على مدى سنوات. بعد مئات الآلاف من الكلمات التي سطرناها على هذه الصفحات، لا تزال شريحة كبرى من مجتمعاتنا، من الأميّين والمتعلمين على حد سواء، تستمع إلى رأي رجل الدين والعراف وأشباه الأميين من مفسّري علامات الساعة. كمية الكلام المتداول على الوسائط الاجتماعية هائل. ومن يستخدم فيسبوك وتويتر وواتساب نفترض أنه متعلم ولديه الحد الأدنى من المعرفة بالأدوات العصرية في عالم متصل. لكن الكثير من هذا الكلام لغو وترديد لأدعية وتمنيات، بدلا من أن يكون نقاشا في لحظة مفصلية وتريّثا لإدراك ما يحدث من حولنا، وما يمكن أن يجرّه الوباء علينا من كوارث نفسية واجتماعية وسياسية، أكبر بكثير من غريزة البقاء الشخصي. بعد سنوات من النشر والكتابة والاهتمام والإنفاق، تكتشف أنك كنت تحرث في البحر. في مجتمعات غيبية، لا تتغير الأمور إلا لكي تعود إلى حالها.

> بعد مئات الآلاف من الكلمات التي سطرناها، لا تزال شريحة كبرى من مجتمعاتنا، من الأميّين والمتعلمين على حد سواء، تستمع إلى رأي رجل الدين والعراف وأشباه الأميين من مفسّري علامات الساعة.

الإحباط أيضا يتواصل إلى ما نعد به أنفسنا من رغبة في التقدم والتطور. لا أعرف كم هو عدد الجامعات والمعاهد العلمية المتخصصة في عالمنا العربي. هو عدد كبير لا شك، بالمئات وربما بالآلاف. وفي كثير منها – ونظريا كلها – كليات ومختبرات للدراسات الصحية والبيولوجية. هناك عشرات الآلاف من الباحثين وأساتذة الجامعات والأطباء ممن يتخصصون – نظريا – بالبحث العلمي الصحي والطبي والبيولوجي والمخبري. منهم نسبة كبيرة يجب أن تكون الأوبئة شاغلهم الأول، طالما لا زال في مجتمعاتنا ما يكفي من التخلف ونقص البنى التحتية وتراجع الخدمات الصحية والبلدية، ممّا يسهّل انتشار الأوبئة. تتصفح يوميا الأخبار وتجد أن العلماء والباحثين في كل العالم يعملون على مدار الساعة على أمصال واقية واختبارات كشف فعالة ومحاولات لإيجاد العلاج للفايروس. لكن لا تسمع أو تقرأ بأن عالمنا العربي مهتمّ بالأصل، بل ينتظر مشروع الإنقاذ الغربي أو الشرقي الصيني أو الهندي أو الياباني. يوتيوب مليء بخبرائنا وأطبائنا يفتون بالنصائح والإرشادات، وكنا نتمنى أن يكونوا في مختبراتهم يضيعون الوقت مع الفايروس في محاولة رصده وتحييده، وليس معنا. الفايروس لا يمكن أن يقتل بالصدفة أو من خلال معجزة كتلك التي تطل علينا في صحفنا يوميا عن اكتشافات "علمية" عربية لا تتوقف عن علاجات لأمراض السرطان والإيدز والكبد الفايروسي. بالطبع كلنا نعرف أنها اكتشافات وهمية لا قيمة لها. "صباع كفتة" على أقصى تقدير. اكتشافات تعزز الإحباط.

يقال إن الطاعون كان لحظة فارقة في حياة أوروبا، حين أدرك الناس أن الدجل والخرافة والأفكار الغيبية لا يمكن أن تنقذهم. يعتقد مؤرخون أنها كانت لحظة الحقيقة، على الأقل لبعض التنويريين ممن وجدوا الفرصة لتنبيه الناس وحثهم على النظر لحياتهم بشكل مختلف. بقية الحكاية في الغرب من عصور النهضة والتنوير والثورة الصناعية والطبية والعلمية والتقنية معروفة. متى تبدأ حكايتنا؟

غرفة تسكنها الجدران

أهي نهاية الشوط المرح في الماراثون الإنساني؟

نوري الجراح
شاعر سوري مقيم في لندن

سؤال هو مظلة لأسئلة جمة تبادرت إلى الذهن بينما العالم يعبر أفواجاً عزلاء هذا البرزخ المسمّى كورونا، في محاولة للعثور على صيغة من نوع ما للجواب عن سؤال وجودي عابث: ما العمل؟ مصحوباً بصبغ شتى لقضاء الوقت بين أربعة جدران.

"غرفة بملايين الجدران".. تستعيد ذاكرتي، الآن، هذا العنوان لشاعر عربي لم يعد بيننا، شاعر كتب يوميات حياته في النصف الثاني من القرن العشرين شعراً أقرب من الشفاهة، في لغة لم تطلب الإدهاش بمقدار ما أرادت إعادة تعريف البداهة، واستنكار غرابة الواقع عن طريق لعبة المفارقة، على الرغم من خروجه الكامل على التقاليد الفنية التي عرفها الشعر العربي حتى قيام ثورة الشعر الحر في أواسط القرن الماضي. لكن هل يمكن تطوير هذا العنوان، اليوم، ليحمل معنى مستجدا مع ما استجد في العالم من كوارث بعد عقد على رحيل هذا الشاعر.

والسؤال الآن، هل قصد محمد الماغوط أن العالم غرفة بملايين الجدران عندما أطلق على مجموعه الشعري هذا العنوان.

***

إنه هو إذن، العالم، بكل ما يصخب ويعتمل ويضجّ فيه، محض غرفة كبيرة تسكنها الجدران وفي ما بين الجدران بشر في حشر قيامي. (اكتب يومياتك، أفكارك، تصوراتك، بصدد اللحظة وما سيليها). هذا ما طلبه محرر "الجديد" من كتابها المنتشرين على خارطة الآلام العربية مشرقا ومغرباً ومنفى انتشر على أربع جهات الأرض.

***

ماذا تفعل في البيت، حاجرا نفسك، ومحجورا عليك؟ كيف تقضي وقتك؟ في القراءة؟ في النوم؟ في سماع الموسيقى؟ في المشي في الغرفة؟ هل تشعر أنك سجين؟

هل تفكر بأنك مهدد، وأنك ضعيف ولا حول لك؟ أم أنك تشعر بأنك قويّ، وتدّخر قوتك لفصل آخر، في منازلة وجودية مع عدوّ لا قبل لك به ولا سابق له في تجاربك؟

ماذا تعنيه لك هذه التجربة، أن تكون مهدداً بالمعنى الوجودي للكلمة..؟

هل تقوم بجلسات مراجعة صامتة مع نفسك؟ مراجعة لحياتك؟ لمسيرتك الشخصية؟ لما فعلت وما لم تفعل؟ لما كنت تحلم به وما صرت إليه؟

هل أنت خائف من يوم غد؟

هل تشعر أنك في واقعة غريبة مدبرة من قوة كبرى؟ أم تشعر بأن ما يجري هو ضرب من تمرد الطبيعة ولحظة من لحظات معاقبتها للإنسان لسبب ما؟

هل حملت الجائحة الكونية مخيلتك على استدعاء أفكار وخواطر قيامية كنهاية العالم وما شابه؟ هل ذكّرتك بكتب ما من مؤلفات الخيال العلمي أو فيلم سينمائي أو لوحة تشكيلية أو فصل من فصول الكوارث في كتب التاريخ؟

كيف تتخيل نهاية هذا الكابوس الإنساني؟ هل تظن أن قوة الدول والعلم والتطور الطبي ستكون كافية لابتكار علاج ينجي البشر من هذا الفايروس القاتل. هل أنت متفائل؟ هل لديك توقع لما يمكن أن يحدث للبشر حتى ذلك الوقت؟

هل تظن أن شيئاً أساسيا سيتغير فيك وفي من حولك، في حياتك وتفكيرك وفي حياة وتفكير الناس ومستقبل العلاقات في ما بينك وبين من حولك وبينهم وبين العالم، بفعل هذه التجربة؟

لكل منا قصة (غرافيكس «الجديد»)

***

ما سلف أسئلة لها أجوبة، ولكن ماذا عن الأسئلة التي أرجأت أجوبتها؟ الأسئلة التي مكرت بها أجوبتها؟ الأسئلة التي حارت بها أجوبتها.. في عالم فقد مرحه فجأة، واكتشف أن الأرض ليست كروية وحسب، وأن أشكالها الأخرى ما تزال لم تجد أسماءها بعد.

أهي نهاية شوط مرح في الماراثون الإنساني، أم مجرد مرحلة في سفر عبثي؟

مرة في المتحف المصري، بعد رحلة شاقة في جوار هرم خوفو، وبعد ساعة في تأمل هذا الكائن الغريب المسمّى أبا الهول بجسمه الضخم ونظرته المتعالية. إذا بي مرة واحدة أمام لجام زجاجي وأبي الهول بحجم حبة الفاصولياء. أهي الإحاطة بكل شيء مهما كبر ومهما صغر، أم هو إدراك مبكر لقيمة المتناهي في الصغر، يبدو أن العبرة لم تبلغ مداها، ولم تستولِ على مخيلة الإنسان، ليكون أكثر احتراماً للمتناهي في الصغر.

***

والآن، بات لزاما على الإنسان أن يحترم القدرة اللامحدودة لما صغر حتى بات لا يُرى بالعين المجردة.

***

ماذا تفعل أيها العالم في غرفتك المسكونة بملايين الجدران؟ وأنت أيها المقيم في الحقيقة وفي مجازها؟ هل تفتح النافذة لتستقبل الهواء، أم أن يدك ترتجف وتتردد؟ فلعل شعيرات الموت تطيش هي الأخرى قرب النوافذ، وقد حملت ذراتها اللامرئية رماد الأرض إلى رئات الهاربين من غموض الطبيعة إلى غموض الكلام، ومن التباس الفكرة إلى التباس اللغة.

ماذا تفعل أيها العالم بيديك اللتين صنعتا الجمال وأفسدتا هواء الرئتين؟

اكتب يومياتك، أفكارك، تصوراتك، بصدد اللحظة وما سيليها. ثم اكتب قصة متخيلة من 10 سطور أو أكثر أو أقل، عن أسوأ شيء ممكن أن تتخيله أو تتوقعه؟ أو أطرف شيء؟ أو أسعد شيء يتعلق بما أنت فيه الآن؟

> كيف تتخيل نهاية هذا الكابوس الإنساني؟ هل تظن أن قوة الدول والعلم والتطور الطبي ستكون كافية لابتكار علاج ينجي البشر من هذا الفايروس القاتل. هل أنت متفائل؟

هل يعقل أن يطلب شخص مثل هذا الطلب المترف من حملة أقلام ضجوا في غرف لم يتخيلوا أن يجدوا أنفسهم سجناء بين جدرانها، وقد حاروا ماذا يفعلون بأيديهم، في برهة من الزمن لم يتخيل أيّ منهم، لا في أطرف القصص ولا في أكثرها سوداوية أن يكونوا أبطال هذه الواقعة؟

إذا لم تشعر أن هذه النقاط هي ما يقبض على حالتك أو يفتح لها باباً وأنك في منطقة تفكير أخرى مختلفة، وأنك منشغل بشيء آخر. أرجو أن تمسح هذه السطور.

وتنسى أنك قرأت..

ولكن هاتِ سطرك أنت أيها الكاتب.